الشّعر الوجدانيّ المغربيّ في الخمسية الهجرية الأولى
-الوصف أ نموذجاً-

أ.د.محمد مرتاض
جامعة تلمسان(الجزائر)

ممّا لا يتنازع فيه اثنان، ولا يتناطح عنزان أنّ الشّعر العربيّ وجداني إلاّ أقلّه؛ ولكنْ ليس كلّ شعر يندرج تحت هذا الباب هو بالضّرورة منه؛ فقد نلفي غرضاً من أغراض الشعر الوجداني، ولكنّه مع ذلك لا يتعلّق به إلاّ من حيث إنّه يتناول الصيد، أو الحرب، أو الحكمة، أو الرّثاء، أو الوصف، أو الغزل. ولابدّ من التّنويه بأنّنا أطلقنا (الكلّ) من باب الجزء؛ لأنّ التّعريفات للشّعر الوجداني قد تخالفنا الرّأي؛ حيث إنّها تكاد تحصره في الحنين والنّسيب والتّشوّق إلى الإخوان – كما يذهب إلى ذلك عبد السّلام شقور [1]،ولكنّ الذي يزيدنا اطمئنانا إلى ما قرّرناه، هو رأي أحد أقطاب الأدب والنّقد في العصور القديمة؛ ونعني به ابن رشيق الذي أحصى كثيراً من الأغراض التي تدخل تحت باب الشّعر الوجداني، فذكر منها: النّسيب، والمديح، والفخر، والرّثاء، والعتاب، والوعيد والإنذار، والهجاء، والاعتذار [2] فلما انتقل إلى الوصف[3] –مثلما يلاحظ عمر فروخ– لم يتعرّض لأغراض وفنون كانت مألوفة على عهده ذائعة كالخمريّات، والحكمة، والطّرديات، والزّهد، والإخوانيّات[4].

ومن الواضح أنّ الشّعر إذا كان يُعزى إلى هذا الغرض أو ذاك، ولكنّه يخلو من العاطفة الدّفاقة، والمشاعر الصّادقة، والتّأثيرات والتّأثّرات؛ فإنّه قمين بأن يُقصى من هذا الفنّ، ويُعزَل من هذا التّصنيف.أضف إلى ذلك أنّ المراد بالشعر الوجدانيّ ليس حتما هو ذلك الشعر الذي يتعمّق ويحاول التّخفّي وراء الرّموز والإيحاءات فحسب، ولكنّه هو أيضا كلّ شعر تلفّع بثوب المشاعر والأحاسيس مثلما يؤكّده أحد الدارسين قائلاً: « إنّ الفائدة المصاحبة للجمال لا يشترط أن تكون فائدة مادية بحتة (كذا)، فقد تكون فائدة نفسيّة، أو روحيّة، أو أخلاقية، فالجمال النّباتيّ والزّهريّ بما

يعقبه في نفس المتذوّق من مشاعر البهجة، يطرد كذلك مشاعر الكآبة والسّأم، كما يزيل منظر الماء المتدفّق النّضّاخ مشاعر الرّتابة والفراغ والسّكون والهمود...بل إنّ الشّعور بالرّضى واللطف والسّرور وغيرها من المشاعر الجماليّة الخاصّة إنّما هي مكاسب نفسيّة ومنافع وجدانيّة للإنسان.»[5]

هي ذي الوجدانيّة التي يغرض إليها البحث إذاً، وليس الوجدانيّة الرّامزة التي تتغلغل في عالم الخيال، وتختفي بين تعاريج التّصوّف والتّفلسف.

وحين رمنا أن نبحث في هذا اللّون من الشّعر صادفتنا نموذجات كثار، تطمح كلّها إلى أن تُدمَج معه أو تطمع في أن ترتدي ثوب لونه. بيد أنّ القارئ الواعي. كما يطلق عليه سارتر .[6] لا يأخذ بهذه المسلّمة؛ بل يقبل على تمحيص النّصوص والتّملّي في قراءتها قبل أن يسمح لها بالاعتزاء إلى هذا الغرض أو ذاك.

وبما أنّ هذه المداخلة تحاول أن تغطّي فترة معيّنة: فإنّه لا مندوحة لها من الاطّلاع على الشّعراء الذين أسّسوا بقصائدهم لهذا الفنّ في المغرب العربيّ؛ وإن كان الأمر عصيّا، والاستقصاء شبه مستحيل، باعتبار أنّ العدد عديد،والقائمة طويلة، وما أوردناه في هذا العمل لا يعدو أن يكون قطرة من بحر، وذرّة من رمل .

وكان من أهمّ الشّعراء الذين عُنوا بهذا الفنّ؛ بكر بن حمّاد، وأحمد الصّواف؛ وابن فلفول، وابن النّحوي، والقاضي عياض، والحسن بن زِنباع، والصقلي النحوي، وابنُ رشيق، والشّقراطيسي، وعيسى بن مسكين (214– 257هـ) وعبد الملك بن قُطن (–255هـ).وهلمّ جرّاً...

وقد يكون من قبيل المبالغة أن نلزم أنفسنا بمسح تاريخي دقيق لتتبُّع هذا الشّعر في مظانّه، لأنّ حجم هذه المداخلة لا يسعها، من وجهة، ولأنّ ذلك يتطلّب كتابة بحث مستقلّ من وجهة أخرى،بل إنّ البحث الأكاديميّ نفسه ، والذي يقوم به شخص وحده، يأبى أن يحمله ويشفِق منه، ولا جرم أن يتوزّع هذا العملَ بُحوثٌ كثيرة حتّى يقتربوا من إدراك المُبتغى، ونيل الأرب.

هذا جانب، وأمّا الآخر؛ فهو أنّ المداخلة ستجتزئ بنموذجات قلائل؛ فاسحة المجال لمن أراد التّوسّع والتّفصيل[7]؛ مع الإشارة إلى أنّنا سنقف عند كلّ غرض من

أغراض هذا الفنّ؛ مقتصرين على الجديد من الأمثلة، كي لا يحدث اجترار، ولا يقع تكرار لما هو مألوف شائع من الاستشهادات في حدود ما تتيحه الأمثلة، وتوفّره المظانّ.

الوصف:

إنّ أجمل الشّعر وأروعه بلا نزاع هو الوصف، وحين نجيء إلى هذه الإشارة فإنّنا لا نعني الوصف العابر أو العامّ؛ لأنّ الشّعر العربيّ كلّه يعود إلى الوصف – في نظر ابن رشيق– [8] وإنّما سنقف عند الوصف الذي يتبجّس بماء الحياة، ويتدفّق بعاطفة الإنسانية؛ ونعني به وصف الطّبيعة الذي يهزّ المشاعر النّائمة، ويوقظ العواطف الخاملة. وإلاّ، فَمَنْذا الذي لا يرغب في جلسة هادئة أصيلاً فوق الرّمال، أو على قمم الجبال وقُنَنِها، أو بجنب جدول رقراق يبعث بخرير أمواهه، أو تحت سرحة متدلّية الأفنان، طلحها منضود، وظلّها ممدود.أضف إلى ذلك أنّ هذه الطّبيعة تكون أروع منظراً وأقرب إلى نفسيّة المرء إن كانت في فصل معيّن كفصل الرّبيع؛ والذي صادفت بهجةُ أيّامه انعقاد هذا الملتقى.

ومن الواضح أنّ شعر الطّبيعة في الأدب العربي قليل نادر، وما وصل إلينا لا يمثّل بحّق جمال الشّعور العربيّ، ولاسيّما في الحواضر التي كانت موئلاً لتدفّق المياه، وشذا الأزهار، وشدْو الأطيار، وهنْدسة الغرس، واخضرار الأشجار المثقلة بأطايب الفاكهة، والمنمّقة بمفاتن الاخضرار !... فهل أنّ البيئة العربيّة أقحلت إلى درجة أن جعلت أهلها لا يقدرون على التّغنّي بمفاتن مناظرها؛ أم أنّ البيادر غلبت الحواضر؟! ولكن، حتّى إن كان الأمر مفترضا على هذا النّحو؛ فإنّنا لا نعذِرُ الشّعراء العرب الذين أداروا ظهورهم لكلّ ما في الطّبيعة من أشجار وفواكه وسواق وأنهار وبحار وحقول مترامية، وحدائق متناثرة...وهذه التّهمة تصمّ جبين الشّعر العربي ليس في المغرب العربي وحده، وإنّما في المشرق العربيّ أيضا. ومن هنا، فإنّنا لا نُثرّب شعراء المغرب العربيّ بدعوى أنّهم مقصّرون في هذا الغرض، ناقصون في هذا المجال.

وقد بدا لنا من الوقفات المتناصّية عند هؤلاء الشّعراء أنّهم استطاعوا أن يرسموا لنا بعض الألواح المثيرة المؤثّرة جميعا من الطّبيعة؛ إلاّ أنّ عددهم كان محدوداً، والقصائدَ كانت موجزة إلى درجة أن تحوّل كثير منها إلى مجرّد مقطوعات؛ وهو ما يدفعنا إلى الإلحاح على التّساؤل تارة أخرى في حيرة: هل فهل أنّ فِكْر هؤلاء أجدب وأمحل فجفّ معه اليَراع، أو أنّ عوادي الزّمن جارت على إبداعهم فلم تسجّل إلاّ ما راق لها، ولم تحتفظ إلاّ بما صادفته في طريقها؟!

مهما يكن؛ فإنّ هذا الغرض ذائع الصّيت عندهم، ويمتاز بخصائص ومقوّمات فنّيّة لا تقلّ شأناً عما عرفته الحواضر العربيّة الأخرى كبغداد، ودمشق، وحلب، وغيرها؛ ويستنتج الدّارس وهو يخافت صوته وحده، ويناجي نجيّه أوفكره أنّ هذا الفنّ الشّعريّ قد تحيّفه بعض القوم فأغفلوا ذكره، وأهملوا أمره، وهذا من شأنه أن يدفعنا نحن إلى أن نكون بهذا الشّعر أحفياء، وبهذا النّوع منه بخاصّة أوفياء إسهاما منّا متواضعاً في كتابة تأريخ للأدب العربيّ في أقاليم المغرب غداة الخمسيّة الهجريّة الأولى.

بيد أنّ الغرض الغالب على الفنون الوجدانيّة جميعا هو غرض الوصف؛وإن كانت هذه الغلبة ليست بدعا ولا عجبا، لأنّ بعض النّقّاد مثلما سبقت الإشارة إليه يكاد يجزم بأنّ الشّعر العربيّ كله يعود إلى الوصف؛ وبأنّه هو الأصل في الأغراض المختلفة المذكورة؛ يقول ابن رشيق: «الشّعر إلاّ اقلّه راجع إلى الوصف؛ بيد أنّه لم يكن ثمَّةَ من تجزئة هذه التّسمية لاتّساع مدلول الوصف مطلقاً وشموله كلّ شيء تقريبا، فنظر النّقّاد إلى الموضوعات التي اتّسعت اتّساعاً كبيراً فسمّوْا وصف النّاس الأحياء مدحاً وهجاء، وسمَّوْا وصف الأموات رثاء، وسمّوْا وصف النّساء خاصّة غزلاً، ثمّ إنّهم قسموا الكلام في المرأة قسمين، فما كان منه في وصف أعضائها الظّاهرة من حسْن وجهها وجمال قدّها ولون شعرها واتّساع عينيها أبقوا له اسم الغزل، وما كان يتناول الشّكوى من فراقها والتّشوّق إلى لقائها وإظهار الحبّ لها سمّوه نسيباً...»[9] فصار الوصف منصرفاً إلى وصف الطّبيعة خصوصاً؛ ومن هذا التّحديد جئنا إلى بعض المقطوعات ؛ والتي لم تكن بالكثرة التي يطمح الدّارس إلى

الوصول إليها، بيد أنّها تقدّم تشخيصاً لهذا الغرض وتقرّب توضيحاً له، إذ إنّ ما أوردناه من نماذج قد يكفي لأخذ فكرة ما؛ باعتبار أنّ هؤلاء الشّعراء قد وضعوا اللّمسات الأولى للوصف أو كادوا، وكان لهم دور في تحديد هذا الاتّجاه الفنّيّ في مقدّمتهم بكر بن حمّاد التيهرتي الذي نلاحظ أنّه بالرّغم من شهرته الشّعريّة، وطول باعه في وصف الحروب والمعارك، وقدرته على الرّثاء؛ فإنّه لم يوفّق في الوصف؛ وقد يهزأ به النّاقد وهو يقرأ له هذه المقطوعة الوحيدة المؤلّفة من أربعة أبيات في الوصف حين يقول:

ما أَخْشنَ البـردَ وريعانـه　　　وأطرفَ الشّمس بتاهَرْتِ
تبدو من الغيم إذا مـا بَدَتْ　　　كأنّها تُنْشَرُمِنْ تخْـتِ
فنحن منها في بحر بلا لجّـةٍ　　　تجْري بنا الرّيح على الصّمت
نفرح بالشّمس إذا ما بَـدَتْ　　　كفَرْحَة الذِّمِّيِّ بالسّبْـتِ[10]

وممّا لا ريب فيه أنّ هذا الشّاعر معذور، لأنّه لم يكن يجري وراء النّظم في كلّ الأغراض المتداولة على عهده؛ وإنّما كان ذا رسالة مذهبيّة، وكان يعمل على بسط ذهبه، وإرساء دعائمه بقصائد لا ينكر أحد جمالها، ولا يتجاهل امرؤ أيّا كان شأنها الفكريّ، أو قيمتها الفنّيّة.

إنّ شعر الطّبيعة عرف بدايته على أيدي الشّعراء الجاهليّين والعبّاسيّين ثمّ الأندلسيّين الذين تغنّوا بمفاتن الطّبيعة فوقفوا عند كلّ من وصف البساتين، والبروق، والزّهور، والأمطار، ومجالس الغناء والطّرب، وأماكن القصف واللّهو، والرّياض، والجداول، والخمائل، والنّاعورات، وغيرها.وبإمكان الباحث في هذا الغرض عندهم أن يغترف نماذجها اغترافاً، وأن يتجوّل بين ظلالها متبختراً مرتاحا، لكنّ نظيره الذي يؤرّخ لهذه الفترة في المغرب العربيّ يشقى ببحثه، ويُعنّى بقراءته. والأهمّ أنّنا ألفينا بعض النّصوص التي تهزّ النّفوس، وتنعش الأحاسيس؛ ومن ذلكم ما يذكره ابن زنباع واصفاً آثار الرّبيع وروعة تأثيره في الطّبيعة بعامّة؛ جاعلاً من الجماد حركة، ومن الصّورة حياة، ومن المشهد استجابة كما لو كانت إنسانا يعي ويسمع؛ يقول:

أبدتْ لنا الأيّـام زهرة طيبها　　　وتسرْبلَتْ بنضرها وقشيبِهـا

واهتزّ عطف الأرض بعدَ خشوعها وبدتْ بها النّعماء بعدَ شُحوبِها
وتطلّعت في عُنْفُوانِ شبابِهـا من بعد ما بلغت عُتِيّ مشيبها

فلولا أنّه يذكر في البدء بنية "الأيّام" لذهب بنا التّفكير إلى أنّه يريد فتاة رائعة الحسن قد اكتست ثوباً فضفاضاً، وتزيّنت بشبابها الفائر الذي يحرّك الجماد، ويهزّ الزّاهد.

ثمّ يتقل إلى السّحب ليُلبِسها بدورها لُبوس الحياة، ويضفيَ عليها الأنْسنةَ فيَجْعلَها تحسّ وتشعر، ولذلك فهي ترحم تلك الأرض التي كانت ظمأى إلى الماء، متلهّفة على الارتواء؛ فيقول:

وقفتْ عليها السُّحْبُ وقْفَةَ راحـمٍ فبكتْ لها بعيونِها وقلوبِهـا

وهذا التّأثّر الذي انطبع على السّحب فجعلها تحنّ على الأرض حنوّ المرضعات على الفطيم أفضى إلى أن تحدث علاقة غريبة حيث يغدو التّقطيب سعادة، وتصيرُ الابتسامة ألما وشقاء؛ إذْ إنّ اكفِهْرار السّماء ودموع السّحب أسهمت إلى درجة كبيرة في نشر سعادة مطلقة بين عالم الأزهار، وبثّت نشاطاً دائباً، وحبوراً مطلقا بين فصيلتها؛ ولم تقتصر على ذلك وحده، وإنّما تزيّنت بحُلل ذهبيّة، وأضافت إلى زينتها تزيينا، وإلى بهجة لونها فتنة وإثارة:

فعجبت للأزهار كيف تضاحكت ببكائها، وتباشرت بـقطوبها
وتسرْبلتْ حُللاً تجرّ ذيولهـا من لومها فيها وشقّ جيوبهـا
فلقد أجاد المزْن في إنْجادهـا وأجاد حرّ الشّمس في تربيبهـا

ومن وصف الطّبيعة يخلُصُ إلى نفسه هو وأخلاّؤهُ من ذوي الصّفوة والسّموّ، ومن أهل البِرِّ والصّدق؛ لا رِفاق السّوء، وصحبةِ الأشرار، وجلسةِ اللّهو؛ فيقول:

فأَدرْ كؤوس الأنس في حافاتهـا واجْعل سديد القول من مَشْروبِها
وحديثُ إخوان الصّفاء لـذاذةٌ تُجْنى، ويومِنُ مِنْ جِنايةِ حُوبِها
واركُضْ إلى اللّذّاتِ في ميْدانِها واسبِق لسدّ ثغورِها ودروبِهـا
أغريْت خيْلك صيْفَها وخريفهـا وشِتاءها، هذا أوان ركوبهـا
أو ما ترى الأزهار ما مِنْ زهرة إلاّ وقد ركبت فِقار قضيبهـا

والطيرَ قد خَفَقتْ على أفْنانِهـا   تُلْقي فنون الشّدْوِ في أسلوبهـا
تشدو وتهتزّ للغصون كأنّمـا   حركاتُها رَقْص على تطريبهـا[11]

هذا الوصف الجميل قد زاده الحوار الدّاخليّ بين الضّمائر بهاءً وحسنا، وطبعه الانزياح بطابعه المنوّع؛ فكانت الأزهار والأطيار والأشجار هي التي تصنع الحدث في هذه القصّة، وهي التي تتمايل مترنّحة، وتتراقص متأثّرة بما ترى وتسمع وتحيا.

أمّا القاضي عياض فإنّه قد أسهم بدوره في هذا الغرض – وإن لم يكثر– ولكن الذي قاله يعدّ من عيون شعر العرب الوصفي؛ يقول في بيتين شهيرين واصفاً سوق الزّرع في نشوة بلوغه أعلى درجة النّضج والامتلاء والاستحصاد؛ ذكرتهما معظم الكتب التي ترجمت له واقتصرت عليهما؛ فهل أنّه لم يقل إلاّ هذين البيتين؛ أم أنّ المظانّ لم تجهد نفسها، وتصرّفت في شعره على عادة المؤرّخين القُدامى:

انظر إلى الزرع وخاماتـه   تَحْكي، وقَدْ ماسَتْ أَمامَ الرّياحْ[12]
كتيبَةً خضراءَ مهزومـةً   شَقائِقُ النُعْمانِ فيها جِراح[13]

إنّها صورة معبّرة مؤثرة يمكن لها أن تتحوّل في يد رسّام ما إلى لوح فيه الألوان، وفيه الظّلال، وفيه الزّوايا والإيحاءات المختلفة.

صورة الزرع بخيلائه وإعجابه بنفسه ⟵ صورة الرّياح في قوّتها وعتوّتها.
= كتيبة خضراء مهزومة = شقائق النّعمان (باللّون الأحمر) = جراح لها.

أجل، إنّ الصّورة الفنّيّة جديدة طريفة، لكنّ الصّورة المعنويّة مهتزّة؛ لأنّ الزّرع إذا انحنت رؤوسه، وجنحت سوقه إلى الأرض؛ فليس ذلكم انهزاماً دائما، وإنّما انهزاما مؤقّتا، لأنّه سرعان ما ينتفض إلى أعلى، ويثور على الرّياح نفسها فيعاود الوقفة في هيئته مستقيمة؛ على حين أنّ الكتيبة المهزومة يتعذّر عليها أن تستعيد عافيتها وتجدّد استعدادها إلاّ بعد مدّة.

وهذا الشّاعر القاضي نفسه ينبري لوصف الطّبيعة هذه المرّة من خلال حديثه عن ليلة غرّاء كما نعتها هو؛ يقول:

سمح الزّمـان بلَيْلَـة   غرّاءَ جامـعة السّرورْ

أجْنت أكُفّ جُناتِهـا قطفَ الأمـانيّ والْحُبورْ
ما فضّ طـين خِتامَهـا فيـها تقدّم مـن دهورْ

هو وصف لليلة ما إذاً، وكان يمكن أن يمضي في الوصف لهذه اللّيلة بنجومها اللاّمعة، وكواكبها السّيّارة المضيئة، وأقمارها المشعّة؛ أو يصف ما يُوحي به دجاها المخيف، ولونها المرعب، أو يصف خلوّ كلّ خلّ فيها إلى خليله، أو روعة السّمر وبهجة السّهر في كنفه بين الأحبّة والخلاّن...إلى غير ذلك ممّا يضفي على وصفه التّوقان، ويكسبه التّفوّق والتّجديد؛ لكنّه هو اختار سبيلاً آخر؛ فقد انتقل إلى المدح الرسميّ ممّا يعني أنّ هذه الأبيات الثّلاثة التي وصف في أثنائها تلك اللّيلة لم تكن إلاّ تمهيداً يقرّبه إلى الممدوح؛ فيقول:

دارتْ على فَلَـك السّعْـ ـدِ بمثْلِ أشْبـاهِ الْبُـدورْ
من كلّ مَنْ ملأَتْ مـهابته الْعُيُـ ـونَ أو الصّـدورْ[14]

ولا نسترسل في إيراد الأبيات الباقية، لأنّها مهزوزة فنّيّا من وجهة، ولأنّها لا تمُتُّ بصلة إلى الموضوع المرام دراسته من وجهة أخرى.

وسيدرك المتلقّي وحده كيف أنّ وصف عياض سيتقزّم إزاء وصف ابن حمديس مثلا، مع أنّهما عاشا في فترة واحدة تقريبا [15]، ولكنْ للاتّجاه الشّخصيّ والخلفيّات الثّقافيّة والمِراس الشّعري والزّاد اللّغويّ دور في أولئك كلّه. وقد لا نكون في حاجة إلى أن نورد للشّاعر النّصّ الشّهير الذي يصف به قصر المنصور الحمادي في بجاية، حيث صوّر ما فيه من أشجار ظليلة، وأمواه متدفّقة وأسود متهيّئة للوثوب أو تكاد...وهي قصيدة جميلة متداولة بين المتلقّين [16] وإنّما سنركّز على قسم من هذه القصيدة يتعرّض فيه لوصف الشّجرة –وما أحوجنا في كلّ شهر، بل وفي كلّ يوم إلى من يصف لنا وللأجيال الجديدة الشّجرة– ويتغنّى بها؛ ويمجّد رسالتها وأثرها على الطّبيعة الحيّة والجامدة بعامّة؛ يقول:

وبَديعةِ الثّمرات تَعْبرُ نحوها عينايَ بحرَ عجائِبٍ مَسْجورا[17]
شجريّةٍ ذهبيّةٍ نزعت إلــى سِحْر يؤثّر في النُّهى تأثيـرا
قدْ صُوّحت أغصانها فكأنّما قبضت بهنّ من الفضاء طُيورا[18]

وكأنّما[19] تأبى لوُقّع طيرهـا ... أن تستقلّ بنبْضها وتطـيرا[20]
من كلّ واقعة ترى منقارهـا ... ماءً كَسِلْسال اللُّجيْنِ نَميـرا
خُرْسٌ تعدّ من الفصاح فإن شدتْ ... جعلتْ تغرّد بالمياه صفيـرا
وكأنّما في كلّ غُصْن فضّـة ... لانت، فأرسل خيْطها مجْـرورا
وتُريك في الصّهريج موقع قَطرِها ... فوق الزّبرجَد لُؤلُؤاً مَنْثـورا
ضحكت محاسنه إليك كأنّمـا ... جعلت لها زهر النّجوم ثغورا[21]

ونختم هذا الجزء من البحث بقصيدة لابن رشيق المسيلي [22] الذي –وإن اشتهر بنظريّاته النّقديّة– فإنّ شعره لا يقلّ شهرة ولا تقديراً ؛ ومن بديع الوصف عنده قوله متحدّثاً عن البرق –الطّويل–:

أربارِقاً بالأبْرق الفرد يومِضُ ... يُذهِّب ما بين الدّجى ويُفضِّـضُ[23]
كأنّ سليمى من أعاليه أشرقَتْ ... تمُدُّ لنا كفّا خَضيباً وتَقْبِـضُ
إذاما توالى ومْضُه نفض الدّجى ... له صبغة المسودّ أو كاد ينفُـضُ
أرقْت له والقلب يهفو هَفْوةً ... على أنّه منه أحرّ وأوْمَـضُ
وبِتُّ أُداري الشَّوْقَ والشَّوْقُ مُقْبِل ... عليّ، وأدعو الصّبرَ والصّبْرُ مُعْرِضُ
وأَسْتَنْجِدُ الدّمْعَ الأَبِيَّ على الأسى ... فتُنجدُني منه جداول فيـض
وأعْذِرُ قلباً لا يزالُ يروعُـهُ ... سنا النّهار مهْما لاحَ،والبرقُ يومِضُ[24]

إنّ ابن رشيق قد ركب مركبا صعبا، وامتطى بحر رويّ جَموحا ظلّ حَراناً على غيره من الشّعراء، لكنّه هو أذلّه وألانه فانْقاد له خاضعا خانعا، ولم نشعر بتلك الرّهبة التي يبعثها حرف الضّاد في المبدعين بعامّة، حيث يعملون غالبا على اجتنابه وعدم النّظم به...

أمّا مستويات هذا النّصّ فإنّها بلغت أوْج التّنسيق والتّنضيد للبنى الإفراديّة والتّركيبيّة معا؛ حيث إنّه استعان بالحوار الدّاخليّ النّاتج عن التّنويع في الضّمائر، والتّنميق في إيراد الصّور الفنّيّة المختلفة ما بين التّرادف والتّجانس والتّطابق والتّكنية

واللّجوء إلى المجاز اللّغويّ والإيقاع بنوعيه ولم نلاحظ تكلّفا إلاّ في البيت الأخير حيث جاء العجز ثقيلاً ركيكا مثلما يتّضح جليّا في قوله:

– الجناس: بارقا / بالأبرق.

– التّرادف: يذهب / يفضفض.

– الطّباق: تمدّ ≠ تقبض.

الومض ≠ الدجى

أدعو ≠ معرض

أستنجد ≠ تتجدني

مقبل ≠ معرض

– المجاز: نفض الدّجى

أداري الشوق ⟵ والشّوق مقبل

أدعو الصّبر ⟵ والصّبر معرض

ومجمل القول إنّ هذا اللّون من الشّعر الوجداني قد عرفه شعراء المغرب العربيّ، واستطاعوا أن يبلغوا فيه درجة متميّزة؛ بل إنّ ما وصف به ابن حمديس قصر النّاصر يعدّ تحفة شعريّة فنّيّة لم تجُد بها قرائح كثير من الشّعراء العرب؛ ووصفه لذلكم القصر يذكّرنا بالتّصوير الذي خصّ به البحتريُّ قصر المتوكّل وبِرْكته؛ وأنّها لا تقلّ عنها شأنا.

هوامش وإحالات

[1] . ينظر كتاب :لقاضي عياض الأديب : د.عبد السلام شقور . دار الفكر المغربي . المغرب 1983م / ط1 ، ص 261.

[2] . ينظر كتاب العمدة في محاسن الشّعر وآدابه: أبو عليّ الحسن بن رشيق القيروانيّ . تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا . دار الكتب العلميّة . بيروت (لبنان) ط1 / 1422هـ (2001 م) . 1: 110 . 181.

[3] . يراجع م.ن : 238- 285.

[4] . ينظر: تاريخ الأدب العربيّ : د. عمر فروخ . دار العلم للملايين . بيروت 1385هـ (1965م) 1 : 50.

[5] . مجلّـة المشكاة، ع .12 السّنة 3 . يناير، فبراير، مارس 1990 ، مقالة عنوانها: « غائية الجمال الإسلاميّ ومعطياته ».

[6] . ينظر: ما الأدب؟ : سارتر(جان بول) . ترجمة: د. محمد غنيمي هلال . دار العودة . بيروت (لبنان) 1984م ، د.ط

[7] – كان مقرّراً لهذا العمل أن يكون مداخلة فحسب؛ ولكن بعد الاطّلاع على كثرة النّماذج، والاستغراق في البحث تحوّلت هذه المداخلة إلى بحث مستقلّ قد يصدر في كتاب قريبا إن شاء اللّه؛ وبذلك تصبح هذه المداخلة جزءاً يسيراً فقط من العمل الكليّ؛ فهي مستلّة من بعض عناصره لا أكثر.

[8] – ينظر كتاب العمدة 2: 278.

[9] – من خلال استقصائنا لهذه الأغراض ألفينا وفرة في بعض الأغراض كالوصف والرّثاء والشّكوى والغزل والخاطرة والزّهد، وشبه غياب لبعضها الآخر كالحكمة مثلاً التي لم نعثر فيها على أكثر من نصّ واحد لابن النّحويّ، والملاحظة نفسها تنطبق على الفخر الذي كان نادراً، ولم يتأتّ لنا رصْد أكثر من نصّين، أحدهما لإبراهيم بن الأغلب، والآخر ليحيى بن تميم؛ وهو ما يعني ترفّع شعراء المغرب العربيّ عن التّبجّح والافتخار المبالغ فيهما.

[10] – الدّرّ الوقّاد: من شعر أبي بكر بن حمّاد التّاهرتي – تقديم وجمع وشرح: محمّد بن رمضان شاوش – نشر: المطبعة العلويّة لمستغانم . الجزائر ط1 / 1385هـ (1966م) ص61.

[11] – المغرب العربيّ: تاريخه وثقافته، رابح بونار – الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع- الجزائر ط 1 / 1968، ص ص 341 – 342.

[12] – الخامة: القصبة الرطبة من الزّرع.

[13] – المطرب من أشعار المغرب لابن دحية (ذي النّسبين أبي الخطاب عمر بن حسن المتوفّى سنة 633هـ – تحقيق: الأستاذ إبراهيم الأبياري وأحمد بدوي وحامد عبد المجيد – راجعه الدكتور طه حسين – دار العلم للجميع – د. ط / د. ت – ص87.

[14] – أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض :احمد بن محمد المقري طبع ثلاثة أجزاء بمصر، والرابع والخامس بالمغرب الأقصى . مطبعة فضالة . المحمدية ، د.ت . 4: 246.

[15] – كانت وفاة ابن حمديس عام 527هـ، ووفاة القاضي عياض سنة 544هـ.

[16] – نريد قصيدته التي منها: وضَراغِم سكنت عَرينَ رئاسَةٍ تركت خَريرَ الماءِ فيه زئيرا

[17] – البحر المسجور: السّاكن والممتلئ معاً – سَجَرَ الماءُ النّهر: ملأه / سجر البحرُ: فاضَ.

[18] – صوّح البقل: يبس / صوّحته الرّيح أو الشّمس: جفّفته / تصوّحَ: تجفّف.

[20] – وقَع يقع وقوعا: الطّير على شجر أو أرض: فهنّ وُقّع ووقوع.

[21] – المغرب العربيّ: رابح بونار، ص 349.

[22] – أبو الحسن بن رشيق: ولد بمدينة المحمّدية (المسيلة) بالجزائر سنة 385هـ، وبها تلقّى علوم العربيّة وكثيراً من المبادئ في الأدب والشّعر، ثمّ انتقل إلى القيروان حيث ذاعت شهرته أكثر، وازداد ثقافة وتعمّقا في خطابه الشّعريّ وفي تجاربه الأدبيّة والنّقديّة إلى أن توفّي بها سنة 406هـ.

[23] – الأبرق: غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة.

[24] – عنوان الأريب: محمّد النّيفر 1: 53 . الأدب في عصر بني حمّاد: د. أحمد بن محمّد أبو زراق، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع – الجزائر: ط1 / 1979م، ص 236.